# التيار الإسلامي في نثر أمير الشعراء

**د. إبراهيم حسين الفيومي**

## ● مدخل ●

شغل شعر أمير الشعراء أقلام الدارسين والنقاد فترة زمنية منذ لمع نجمه في سماء الأدب العربي ، حيث أضحى شاعر العزيز ، حتى وفاته عام ١٩٣٢ م والفترة التالية ؛ لما في شعره من قوة في البناء ، وروعة في الأداء ، وعذوبة في الموسيقى ، وتمكن من ناصية اللغة .

ولقد منحه الله سبحانه موهبة قول الشعر منذ نعومة أظفاره ؛ ويعود بنا شوقي إلى سني طفولته الأولى حيث كان طالباً بالمرحلة الابتدائية ، وقد شرح معلم الجغرافيا درساً عن قارة إفريقيا ، فصاغ ذلك شعراً نذكر منه :

إفريقيا قسم من الوجود     وشكلها أشبه بالعنقود
وذلك العنقود في الماء انغمر     ما أملح الماء وما أحلى الثمر!
مدت إليه يدها أوروبا     من فوقه كمن يريد الحبَّا(١)

ومن يطالع شعر شوقي في مرحلة البدايات ، يلحظ أنه شعر تقليدي ، يتشبث بالزخارف اللفظية ، إلا أن أمير الشعراء استطاع أن يتجاوز هذه المرحلة التي اتسمت بالسطحية ، والاستغراق في الصنعة . فيحلق بأجنحة قوية ، ويوفر لشعره من المقومات الفنية التي دفعته إلى المقدمة بين شعراء عصره ، فكان له القدح المعلى والشهرة المدوية في أرجاء العالم العربي .

*في هذه الفترة التي شهدت تألق شوقي ، نلحظ أنه اتجه إلى ميدان النثر الفني ، حيث طرق العديد من أبوابه .*

*واتجاه شوقي إلى ميدان النثر الفني - رغم تفوقه في الشعر - يدفع الدارس لتراثه إلى السؤال عن سر هذا التوزع بين الفنون ، إذ لم يكن بحاجة إلى المزيد من المجد ، كما إن الكسب الذي كان يمكن أن يحققه من جراء ذلك قضية ساقطة من حسابه ؛ لأن الذهب كان يسيل بين يديه .*

*وأغلب الظن أن أهم الدوافع التي حفزت شوقي إلى ذلك ترد إلى إعجابه ببعض مشاهير عصره ممن جمعوا بين الشعر والنثر(٢) ، كما إن البيئة وظروف العصر وانتماءه الثقافي بوصفه شاعراً من شعراء الإحياء والنهضة ، أسهمت في هذا التوجه ، إذ رأى من واجبه أن يقوم بدور في الإصلاح من خلال طرح قضايا العالمين العربي والإسلامي واقتراح الحلول لها .*

*يضاف إلى ما سبق أن طموحه لم يقف عند حد ؛ وإنما حاول طرق مختلف الفنون الأدبية التي آنس في نفسه القدرة على تناولها ، عسى أن يكون ناثراً مجيداً كما هو شاعر مفلق .*

*ويطمح هذا البحث إلى تتبع التيار الإسلامي في تراث شوقي النثري من خلال رصد مضامينه ، وحصر خصائص أسلوبه عبر فترة امتدت قرابة أربعة عقود من الزمان ، كما سنعرض في نهاية المطاف آراء النقاد في هذا التراث ، متوخين في ذلك كله النظرة الواعية التي تلتزم الموضوعية ، وتطرح التطرف وأهواء الذات ، والله ولي التوفيق .*

## ● الإسلام وثقافة شوقي ●

أود أن أسجل ابتداء أن استعراض المخزون الثقافي لشوقي ليس من قبيل وضع العربة أمام الحصان ؛ ذلك أننا سنصدر أحكامنا على التيار الإسلامي في نثره من خلال النصوص ، دونما إغفال للصلة الحميمة بين النص ومبدعه .

وتشير بدايات شوقي إلى التصاق حميم بالتراث الإسلامي ؛ ففي حي الحنفي

**بالقاهرة أرسل إلى كتاب الشيخ صالح وهو في الرابعة ، حيث تعلم العربية وقرأ بعض القرآن الكريم ، وتعلم الحساب ، ثم تحول إلى المدارس النظامية التي كان يلتحق بها أبناء الموسرين ، فأبدى تفوقاً ملحوظاً .**

**ويقر شوقي بالفضل لبعض الرجال من أساطين عصره ممن وجهوه نحو التراث العربي القديم ، حيث أخذ يمتح منه ، مما وفر له مخزوناً غزيراً .**

**ومن أساتذته الذين أشاد بفضلهم : حسين المرصفي وحفني ناصف والشيخ عبد الكريم سلمان الذي أهداه شوقي كتاب « شيطان بنتاءور » حيث يقول :**

**حتـــــى إذا أتممتها  أهديتها ( عبد الكريم )**
**وأنـــا المقـرُّ بفضلـــه  الذاكر الحق القديم[٣]**

**كانت ثقافة شوقي بمثابة قوس قزح ، أو نهر زاخر تمده روافد عدة ، أقواها رافد التراث العربي القديم ، يليه الرافد الفرنسي حيث أرسل مبعوثاً إلى جامعة « قونبلية » لدراسة القانون على نفقة الخديوي ، يليها الرافد التركي الذي كان أضعفها جميعاً .**

**ورغم التقاء شوقي بالحضارة الأوروبية في فرنسا أثناء البعثة ، وفي إسبانيا أثناء فترة النفي ، فقد ظل يغترف من معين التراث العربي القديم شكلاً ومضموناً .[٤]**

**وقد حدثني كاتبه ـ أحمد محفوظ ـ الذي لازمه طويلاً أن شوقي كان يحب المطالعة في كل اتجاه ، وهو لا يمل النظر في دواوين الشعراء الفحول ، وكتب التاريخ والفلسفة والتصوف ـ وعلى الأخص كتب أبي حامد الغزالي ـ ، كما كانت له هواية عجيبة تتمثل في مطالعة قواميس اللغة .**

ويشهد لشوقي سكرتيره أحمد عبد الوهاب أبو العز بقوة الذاكرة ، والقدرة العجيبة على الاستيعاب حيث يقول : « ... كانت قوة ذاكرته عجيبة جداً في حفظ الألفاظ اللغوية ومصادرها ، فقد كان يحصل أن يأمرني بمراجعة كلمة ، فأتناول أول قاموس تقع عليه يدي ، ويصادف أني لا أجد هذه الكلمة فأراجعه في ذلك ، فيسألني : في أي قاموس بحثت ؟ فأقول : « المنجد » مثلاً ، فيقول : لا إنها غير موجودة فيه ، ولكنها موجودة في « أقرب الموارد » مثلاً ، وأنها تقع في مادة كذا ، ويطفق سارداً على سمعي كل ما قيل في هذه الكلمة : من أصلها واشتقاقها ، وكل ما يتعلق بها ؛ فأفتح « أقرب الموارد » ، فأجد كل ما سرده عليّ موجوداً بالنص . وكثيراً ما يتكرر

ذلك حتى حسبته يحفظ قواميس اللغة عن ظهر قلب »(٥) .

وفي الوقت الذي كان يعود فيه قطاع عريض من المبتعثين إلى أوروبا يبشرون بتعاليم الحضارة الغربية ، ويشنون حملة شعواء على التراث العربي القديم ، نلحظ أن شوقي ظل متشبثاً بهذا التراث دون أن يرفض معطيات الحضارة الغربية بصورة مطلقة . وهذا يشير إلى بعده عن التطرف ، واطراحه للتعسف : فلا هو من المؤيدين لإيصاد الأبواب في وجه هذه التيارات الوافدة ، ولا هو مع من ينادون بفتح تلك الأبواب على مصاريعها بحيث تصبح مصر قطعة من أوروبا .

عاد شوقي من فرنسا أواخر عام ١٨٩٣ م ، حيث أضحى من أقرب المقربين إلى الخديوي ، فطلب الجميع وده ، وتسابقت الصحف والمجلات إلى نشر نتاجه ، بيد أن الظاهرة اللافتة تكمن في ذلك التناقض الواضح بين مكانة شعر شوقي ونثره في الدراسات النقدية التي ركزت الضوء على الجانب الأول ، بينما بقي الجانب الثاني في الظل : ففي الوقت الذي استوعب شعره سلسلة من الدراسات الواسعة ، ودارت حوله خلافات واسعة مازالت آثارها باقية حتى يومنا هذا ، نلحظ أن نثره انطمس أو كاد ، وطوت بعضه يد النسيان أو الإهمال .

وإذا لم يستطع شوقي أن يحقق لنثره ما حققه لشعره من المقومات الفنية ، ــ وهذا افتراض جدلي ــ فإن ذلك لا يبرر إهماله على هذه الصورة ، ذلك أن كثيراً من الباحثين والنقاد لم يحاولوا حتى الالتفات إلى الفن الواحد من فنونه النثرية بصورة شمولية ، بل توزعت الدراسة التي اتسمت بالتعميم وسرعة التناول على السطح كله ، فبدت رؤيتهم ضبابية مشوشة .

ونحن لا نقول هذا جزافاً ، وحسبنا أن نورد بعض المواقف على سبيل التمثيل لا الحصر ، لإثبات صحة ما ذهبنا إليه .

لقد زعم الدكتور طه وادي أن رواية شوقي « دل وتيمان » لم تطبع(٦) ، علماً بأن الرواية طبعت بالقاهرة عام ١٨٩٩ م .

وذكر عبد الستار الحلوجي ضمن النشرة الببليوجرافية التي أعدها عن تراث أمير الشعراء أن رواية « عذراء الهند » لم تنشر ، والصحيح أنها نشرت بالاسكندرية عام ١٨٩٧ م ، كما لم يشر إلى السنة التي صدرت فيها رواية « لادياس » ، مع أن الرواية صدرت عن مكتبة الآداب والمؤيد بالقاهرة عام ١٨٩٨ م(٧) .

وإذا ما ألقينا نظرة على فهرس مجلة « الثقافة المصرية » التي صدرت خلال شهر أكتوبر عام ١٩٨٢ م ، فإننا نلحظ أن نثر شوقي لم يحظ إلا بمقال واحد تحت عنوان « أحمد شوقي الناثر » بقلم سعد عبد العزيز ، ومن العجيب أن يقصر الكاتب حديثه على كتاب « أسواق الذهب » ، وكأن شوقي لم يكتب نثراً إلا هذا الكتاب .

وفي الندوة التي دعت إليها كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ما بين ٩ ـ ١٦ من شهر أكتوبر عام ١٩٨٢ م ، لم يكن هناك إلا بحث واحد تقدم به الأستاذ الدكتور حسين نصار تحت عنوان « الشعر المنثور عند أحمد شوقي » ، إضافة إلى بحث تقدمت به تحت عنوان « الأصول الأولى لمسرحية قمبيز » .

وفيما نرى أن هذا الغموض الذي يكتنف تراث شوقي النثري كان حافزاً دفعني إلى تناول هذا التراث بصورة شمولية ، بيد أن هذا البحث المتواضع يركز الضوء على التيار الإسلامي في نثر أمير الشعراء . وهو موضوع اختمر في ذاكرتي بعد سنين من حصولي على درجة الماجستير .

## ( تراث شوقي النثري بين عهدين )

يستوعب نثر شوقي فترة زمنية تمتد خمسة وثلاثين عاماً ، ويتوزع على مرحلتين .
الأولى : فترة ما قبل النفي وتمتد من سنة ١٨٩٧ ـ سنة ١٩١٥ م.
والثانية : فترة ما بعد النفي وتمتد من سنة ١٩٢٠ ـ سنة ١٩٣٢ م .

وقد ارتاد شوقي ميدان النثر الفني في فترة مبكرة حيث قدم أولى محاولاته الروائية « عذراء الهند » سنة ١٨٩٧ م ، ثم توالت جهوده الروائية فقدم رواية « لادياس » سنة ١٨٩٨ م ، و « دل وتيمان » سنة ١٨٩٩ م ، وانقطع عن هذا الفن ، مدة خمسة أعوام قدم بعدها رواية « ورقة الآس » آخر محاولاته الروائية وأقلها تشويشاً ويلحظ أن شوقي استمد موضوعات محاولاته الروائية من التاريخ الفرعوني تارة . ومن تاريخ العرب قبل الإسلام تارة أخرى ، كما ارتكز في رواية « ورقة الآس » على البعد الأسطوري لما يوفر له من عناصر الصراع المادي والتشويق .

واختار شوقي فترات من التاريخ اتسمت بضعف السلطان ، والتكالب على كراسي الحكم ، مما هيأ الفرصة للغزاة ، إذ احتلوا البلاد وأذلوا الرقاب .

ونرجح أن يكون مرد ذلك إلى نوع من الإسقاط التاريخي ، حيث يعكس السياق الزمني لتلك المحاولات الروائية المبكرة جانباً من الواقع المصري إثر فشل الثورة العرابية وسيطرة اليأس والقنوط على النفوس ، وإقبال القراء من أنصاف المثقفين على الروايات التي كانت تنشر تباعاً في الصحف والمجلات ، وتؤدي غاية التسلية والترفيه من خلال الهروب من الواقع إلى عوالم خيالية تعج بالجن والسحرة والأحداث الخارقة(٨) .

وأقوى دليل على أن شوقي كان يعكس في محاولاته الروائية جانباً من ذلك الواقع المتردي ، قوله في ختام رواية «دل وتيمان أو آخر الفراعنة» ( .... وكان بموت «بساماطيق» آخر الفراعنة موت مصر وزوال استقلالها الحقيقي إلى هذا اليوم )(٩) .

أدلى شوقي بدلوه ــ شأن أدباء عصره ، وبدأ ينشر رواياته مسلسلة في الصحف . وما إن صدرت رواية «عذراء الهند» ، حتى وجه لها محمد المويلحي في صحيفة «مصباح الشرق» ، نقداً عنيفاً ، وواصل حملته على أمير الشعراء إثر صدور الجزء الأول من الشوقيات ، فكتب مقالاً نقدياً سفه فيه تلك المقدمة النثرية التي كتبها شوقي لديوانه ، وكان عنوان مقال المويلحي ( أمر مبكياتك لا مضحكاتك ) حيث يقول : ( ... أما مقدمة الشوقيات من حيث صناعة الإنشاء ، ومن حيث اللغة ، فإنها تدل على أن شوقي شاعر لا ناثر )(١٠) .

ولم يكن محمد المويلحي الكاتب الفرد الذي تألب على أمير الشعراء ، بل ناصبه العداء فريق من النقاد بدوافع شتى ، ويبدو أن شوقي قبل التحدي ، فلم ينسحب من الميدان ، بل استمر صاعداً على طريق النثر الفني ؛ ليثبت لمن ناصبوه العداء أنه ناثر مبدع .

وإذا كان بعض النقاد قد ضربوا صفحاً عن هذه المحاولات الروائية ، وعدوها بواكير فجة تفتقر إلى النضج الفني ، فإننا نرى أن تلك المحاولات تستمد أهميتها من عنصرين :

الأول : الإسهام في استنبات فن الرواية الذي بدأ ينمو ويترعرع ، حتى احتل مكانة مرموقة بين الفنون الأدبية الأخرى في هذا القرن .

والثاني : تصوير بعض معالم التطور الفني واللغوي الذي لحق شوقي عبر فترة زمنية امتدت من عام ١٨٩٧ ــ ١٩٣٢ م(١١) .

ولم تكن هذه المحاولات الروائية نصيب شوقي من النثر الفني فحسب ، بل تحول إلى ميدان جديد حيث بدأ ينشر في صحيفة المؤيد سلسلة مقامات تحت عنوان «بضعة

أيام في عاصمة الإسلام » بتوقيع « سائح » طلباً للتقية أو خوفاً من سياط النقاد .

ومما يقطع أن « سائح » هو أحمد شوقي ، وورود بعض القصائد ضمن تلك المقامات ألحقت فيما بعد بالشوقيات ، كما أثبتها د. محمد صبري السربوني في الجزء الأول من الشوقيات المجهولة .(١٢)

وقد بلغ عدد تلك المقامات اثنتين وعشرين يتخللها قصائد ترد ضمن الموضوع تارة ، وتعرض مستقلة برأسها تارة أخرى .

أما أولاها فقد نشرت بتاريخ ٢٧ أغسطس سنة ١٨٩٩ ، وآخرها بتاريخ ٩ نوفمبر سنة ١٨٩٩ حيث انقطعت فجأة بعبارة : « سألت الدرويش .... »(١٣) .

ويبدو أن كثرة مشاغل شوقي حالت دون إتمام تلك المقامات ، بيد أنه عاد إلى طرح قضايا الأمة المصرية والإسلامية من خلال « شيطان بنتاءور » .

ومن خلال هذه المقامات ، يصف شوقي رحلة بحرية خيالية تبدأ من الاسكندرية وتنتهي بتركيا عبر البحر الأبيض المتوسط ومضيق البسفور .

ويصحب السائح « شوقي » في هذه الرحلة شخصيتان رمزيتان هما : الشيخ رمز البحر المتوسط ، والدرويش رمز مضيق البسفور .

ومن خلال الحوار بين الثلاثة يسترجع شوقي الماضي ، ويضعه في مواجهة الحاضر مستعرضاً العديد من مشكلات الأمة الإسلامية المعقدة ، متشرفاً آفاق المستقبل إذ يقترح الحلول لتلك المشكلات التي طرحها .

واستكمالاً لتلك السلسلة التي نشرها المؤيد بتوقيع « سائح » ، نشر شوقي « بالمجلة المصرية » سنة ١٩٠٠ م سلسلة أخرى تحت عنوان « شيطان بنتاءور أو لبن لقمان وهدهد سليمان » ، ثم جمعت في كتاب وصدرت سنة ١٩٠١ م .

وتستوعب المحادثات التي دارت بين النسر والهدهد حقبة متطاولة من الزمان تبدأ من عهد رمسيس الأكبر الذي كان له الفضل في طرد الهكسوس الغزاة ، وتنتهي بالاحتلال البريطاني لمصر .

ولم يكن هذا كل حظ شوقي من النثر الفني في المرحلة الأولى ، فقد كان يكتب تحت أسماء مستعارة أخرى مثل : « عربي بسفح التوباد » ، كما كتب العديد من المقالات

والخواطر التي ألحقت فيما بعد بكتاب « أسواق الذهب » .

أما المرحلة الثانية ، فقد بدأت بعد عودته من المنفى ، حيث ولج باب المسرح ، وعدت سلسلة مسرحياته فتحاً جديداً في تاريخ الأدب العربي ، وكانت « أميرة الأندلس » المسرحية النثرية اليتيمة التي تناولت حقبة مأسوية من تاريخ المسلمين في الأندلس .

ومن الأمور التي أثارت دهشة النقاد أن يختار شوقي النثر الفني لغة للمسرحية ، علماً بأن حوادثها تدور حول « المعتمد بن عباد آخر ملوك الطوائف في إشبيلية ، وقد انتهت حياته بأن سيق إلى سجن « اغمات » بالمغرب حيث قضى هناك . شاعر ملك هذا شأنه ، وتلك مأساته ، كان جديراً بأن تسجل حياته شعراً لا نثراً .(١٤)

ولم يقطع الدكتور محمد مندور برأي في الموضوع ، واكتفى بالقول : « .. إنه شيطان الشعراء ، الذي لا يخضع لمنطق ، ولا يتقيد بأوضاع »(١٥)

أما الدكتور شوقي ضيف ، فقد رد تحول شوقي من الشعر إلى النثر إلى حملات بعض النقاد عليه ، ليثبت لهم إنهم على ضلال .(١٦)

ومن الملاحظ أن موضوع المسرحية يلتقي في صورته العامة مع محاولاته الروائية المبكرة : فكما وقعت مصر عبر تاريخها الطويل فريسة للاحتلال نتيجة ترف الحكام ، وإهمالهم شؤون الرعية ، وقعت الأندلس في أيدي الفرنجة إثر اشتغال ملوك الطوائف بالصراع على كراسي الحكم ، والانغماس في اللهو والمجون ، حيث ضيعوا كتاب الله وسنة رسوله ، فضاع ملك عريض ، وأفلت شمس الحضارة الإسلامية بعد أن سطعت قرابة سبعة قرون .

وإذا ما تحولنا إلى كتاب « أسواق الذهب » ، فإننا نلحظ أنه لم يقتصر على فن نثري واحد ، وإنما حوى بين دفتيه ألواناً شتى جمعت بين المقامة والمقالة والخاطرة والحكمة .

ورغم صدور الكتاب سنة ١٩٣٢ م ، إلا أن مناسبات بعض الموضوعات تشير إلى أنها كتبت قبل تاريخ النشر ، ثم جمعت في فترة لاحقة ، ودفعت إلى المطبعة بعد وفاته .

وهكذا تميزت هذه المرحلة بقلة الإنتاج إذا ما قيست بالمرحلة الأولى ، بيد أنها تمثل في الوقت ذاته فترة الإبداع ، إذ كان له السبق في طرق أبواب المسرح .

## ● التيـار الإسـلامي في نـثر شـوقي ●
## منطلقـاتـه وأهـدافـه

كان العالم الإسلامي أواخر القرن التاسع عشر يعيش فترة من الصراع والتمزق ، إثر الغزوات الاستعمارية التي تعد امتداداً للحروب الصليبية ، وقد تهيأت الامبراطوريات الاستعمارية لاقتسام تركة تركيا التي سميت آنذاك بالرجل المريض المشرف على الموت .

ولم تكن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية أحسن حالاً من الأوضاع السياسية . فقد رفرفت راية الإقطاع على أرجاء البلدان الإسلامية ، كما انتشر الفقر والجهل والمرض والتخلف الحضاري بأشكاله .

ونتيجة لهذه الأحوال المتردية ، بدأت الدول الإسلامية تقع الواحدة تلو الأخرى تحت سيطرة الأجنبي الغاصب ، فكانت مصر من نصيب بريطانيا إثر فشل الثورة العرابية التي قادها أحمد عرابي(١٧) .

وفي هذه الأثناء ظهرت على الساحة دعوة جمال الدين الأفغاني إلى الجامعة الإسلامية بهدف تخليص أمم الشرق الإسلامي من قيود التسلط الغربي والأوروبي .

وما إن توالت هزائم تركيا ، حتى أخذ الأمل يتضاءل في الجامعة الإسلامية حتى تلاشى ، وبدأت تظهر الدعوة إلى القوميات ، كما هو حال الثورة العربية الكبرى التي تزعمها الشريف حسين في مطلع هذا القرن . في تلك الفترة الحرجة التي كثر فيها الهرج ، وتنوعت الاتجاهات ، واشتدت المنازعات ، قدم شوقي محاولاته الروائية وسلسلة مقاماته « بضعة أيام في عاصمة الإسلام » إضافة إلى « شيطان بنتاءور » . كانت رياح التغيير تهب من كل مكان ، والحيرة تسيطر على النفوس القلقة ، والأصوات الداعية إلى اليقظة تتعالى هنا وهناك ، وعليه فقد اتسمت كتابات شوقي بنبرة الوعظ والإرشاد ، والدعوة إلى الإصلاح بمعناه الشامل .

والحق أن شوقي كان في كل ما كتب مسلماً تتسع نظرته حتى تشمل العالم الإسلامي كله ، ومصر بلد من تلك البلاد الإسلامية لا فرق بينها وبين أية دولة إسلامية .(١٨)

ومن الأمور المهمة التي لابد من الإشارة إليها ، اختلاط عنصري الدين والوطن عند شوقي ؛ ومن هنا كان تمجيده لمنجزات الحضارة الفرعونية ، في الوقت الذي يتشبث فيه بالإسلام وقيمه العليا ، ويؤمن بأن مشكلات المسلمين لا يمكن أن تحل إلا بالعودة إلى الشريعة السمحة .

الدين والتاريخ والطبيعة ، ثلاثة محاور رئيسة دارت عليها مضامين شوقي في كل ما كتب : فمن التاريخ يأخذ العظة البالغة ، ويخرج بالنتيجة الحتمية التي تقرر أن البقاء لله وحده : ﴿ **... سنة الله في خلقه ، يؤتي الملك من يشاء . وينزع الملك ممن يشاء** ﴾(١٩) والطبيعة ينظر إليها نظرة المتأمل المقر بقدرة الله وعظمته ، والدين هو المعين الذي يستمد منه المثل العليا ، ولا يملّ الدعوة الصادقة إلى التمسك بتلك العروة الوثقى التي لا تنفصم عراها « ... قم إلى السماء تقصَّ النظر ، وقصَّ الأثر ، واجمع الخُبْر والخَبَر ، كيف ترى ائتلاف الفلك ، واختلاف النور والحلك ، وهذا الهواء المشترك ، وكيف ترى الطير تحسبه ترك ، وهو في شرك ، استهدف فما نجا حتى هلك ، تعالى الله ! دل المُلك على المَلِك »(٢٠) .

نظر شوقي إلى المصريين وغيرهم من الشعوب الإسلامية وقد شغلوا بسفاسف الأمور ، وركنوا إلى التواكل ؛ فنعى ذلك الترهل الفكري إذ يقول الشيخ للسائح : « ... سبحان ربي ! قتل اليأس الرجال حتى بيعوا بيع النعال ... يخلطون الجد بالمجون ، ويتخبطون في الظنون ، ناسين أنفساً قتلت ، وأموالاً بذلت ، وطمأنينة سلبت ، وخطوباً تألبت ، وحوادث شيبت »(٢١) .

وعندما يشيد السائح « شوقي » ، ببعض منجزات الحضارة الأوروبية المادية ، يتصدى له الشيخ قائلاً : ( من أنت ؟ يامن فخاره بغير قومه ، واستشهاده بأمسه لا بيومه وليس هو في الهيئة إلا كالمحتفلين بموكب الرؤية يبرز للناس في ثياب لم يصنعها ، وعلى مطية لم يبتعها ، يركبها إلى أجل ، ويردها على عجل ، ثم يزعم أنه السيد الأجل ، وأنه يحس ضرب الأمثال ، ويزن مقادير الرجال »(٢٢) .

ويمضي الشيخ في تأنيبه للسائح ، فيحذر من الركون إلى الغربيين ، لأن المتعلق بهم كالآمل بالسراب الخادع ( ... من استند إليهم فقد استنام إلى جدار مائل ، ومنَ اعتمد دون النفس عليهم فما أمن الحبائل ، ولا ركن الرجاء إلا إلى ظل زائل ، علقتهم بهم الآمال ، آمال المصاب بالسلال ، كلما أعضل الداء ، وعز الدواء ، جذبه الرجاء ،

وتمثل له الشفاء . أمراؤكم عليهم متهافتون ، وسراتكم إليهم ملتفتون ، وشبابكم بهم مفتونون ، يحرم غنيكم فقيركم ، ويعطيهم بكلتا يديه ، ويخذل كبيركم صغيركم ، ومواساتهم عليه دين ، من مشى منكم مع قبعة ، فكأن أبا بكر معه ، ومن تكلم لهم بلسان ، فكأنما جاء بقرآن ! »(٢٣) .

ويلتفت شوقي إلى المصريين فيفزعهم بشدة ، ويشجب تعلقهم بالماضي ، وإشادتهم بالسلف الصالح من المسلمين دون رصيد من عمل جاد : ( ... إذا جرت أحاديث العرب ، قلتم بيننا أقرب النسب ، ولنا ما تركوا من حسب ، وما هو إلا سبب قطعتموه ، ودين ضيعتموه ، ولسان عربي بالعجمة بعتموه ، وإذا سمي جد الأتقياء ، وواسطة عقد الأنبياء ، كنتم كلكم لآلي الشرف ، وما خرج قط خزف من ذلك الصدف »(٢٤) .

ويتصعد التأنيب ليصل حد التأليب على المستعمر الغاشم ومحاربة الظلم ( ... قاوموا الظلم ، ولا يغرنكم ما ترون من قوته وبأسه ، فمثله كالأسد : لايزال يفترس حتى تفترسه نهمته )(٢٥) .

لقد ادلهم الخطب ، وتجبر الطغاة ، وتفكك المسلمون ، ولا خلاص لهم إلا بالعودة إلى شريعة الله سبحانه ( ... أغير كتاب الله جامعة يابني ؟ أم دون السنة تبين للرشد من الغي . فإذا نشأ صغاركم في حفظهما ، وازدجر كباركم بقوارع وعظهما ، ونفضتم الأيدي من النفاق ، وتحليتم بمكارم الأخلاق ، كنتم أجمع لشمل الإسلام في هذا المقام منكم في تلك الدعاوى والأوهام . وإلا فمثلكم في حبكم المسلمين ، ورقتكم لإخوانكم في الدين :

كدجاجة حصنت لأخرى بيضها    تحنو عليه وبيضها في النار
أو ذات عجل أرضعت تمثاله    وصغيرها في قبضة الجزار(٢٦)

بهذه النظرة الثاقبة إلى الواقع المتردي للأمة الإسلامية ــ ومصر إحداها ــ كان شوقي يعيش الأمور ، ويرى أن التعلق بأذيال الغرب طلباً للاستقلال ضرب من الوهم .

وتدور عجلة الزمان ، وتقوم الحرب العالمية الأولى ، فتخلع السلطات البريطانية الخديوي عباس حلمي ، وينفي المقربين إليه ، ومنهم شوقي الذي يغادر أرض مصر إلى إسبانيا عبر قناة السويس ، فتهيج أشجانه ، وتتفجر ينابيع الحزن في أعماقه فيقول : ( ... إن للنفي لروعة ، وإن للنأي للوعة ، وقد جرت أحكام القضاء ، بأن نعبر هذا الماء ،

حين الشر مضطرم ، واليأس محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم ، وحين الشامت جذلان يبتسم ، يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم .

لقانا حكام عجم ، أعوان العدوان والظلم ، حلفناهم يفرحون بذهب اللجم ، ويمرحون في إرسان يسمونها الحكم .

ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه ، سامحهم في حقوق الأفراد ، وسامحوه في حقوق البلاد ، وما ذنب السيف إذا لم يستحِ الجلاد ؟ »(٢٧) .

أين هؤلاء الحكام العملاء للسلطات البريطانية من عمرو بن العاص الذي مصر تحت راية الإسلام فكان ( ... تاجه العمامة ، ومطرقة القباء ، وصولجانه السيف ، وكرسيه التراب ، وحاشيته الأصحاب ، وقصره خيمة ممدودة الأطناب ، يحيط به العرب وكأنه أحدهم ، وهو زعيمهم في مصر وسيدهم )(٢٨) .

## ● أثر القرآن الكريم والحديث الشريف في أسلوب شوقي ●

من يتتبع حرفية النثر عند شوقي ، تستوقفه ظواهر عدة أهمها ذلك الطابع الإسلامي الذي ترك بصماته على كل ما كتب .

لقد كان مخزون شوقي من التراث العربي القديم ثراً غزيراً ، كما أسلفنا ، وهو يلجأ إليه فيسعفه .

ورغم إقامة شوقي أربع سنوات في فرنسا ، قبلة أنظار الطلبة آنذاك ، فإن الثقافة الإسلامية ظلت هي الغلابة على مضمونه الثقافي ، وهذا دليل أصالة لا ضحالة(٢٩) .

ومن يستعرض أسلوب شوقي في تراثه النثري ، يلحظ أنه كان يستلهم القرآن الكريم والحديث الشريف في كل موضوع يطرقه تقريباً . ففي سلسلة « بضعة أيام في عاصمة الإسلام » نلحظ أن الشخصيات المحورية الثلاث هي : السائح والشيخ والدرويش ، ولها دلالاتها الرمزية التي ترتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً .

ونراه يستوحي العلاقة التي تربط بين السائح والشيخ من « سورة الكهف » ....

قال السائح للشيخ ( ... فلو استصحبتني معك ، أو أذنت لي أن أتبعك ، لعلي أرتفع بحنكتك ، وأنتفع بحكمتك ، فأقيم الدهر على شكران نعمتك ؟ قال الشيخ : على أن تلزم الصبر ، ولا تكون معي ما كان موسى مع الخضر )(٣٠) ، ونراه يستفتح السلسلة بقوله ( ... همت الفلك باسم الله ، وعلى يده وفي حماه . كأنها الصرح إذا ماد ، وكانت في مرساها كالصخر بالواد ... )(٣١) .

أبداً يستحضر شوقي عظمة الخالق ، ويقر بقدرته ونعمه ، كما يتمثل الأساليب القرآنية سواء كان الموضوع في السياسة أو الدين أو الاجتماع أو غير ذلك . وفي « شيطان بنتاءور أو لبد لقمان وهدهد سليمان » يقع على « لقمان » و « الهدهد » وهما شخصيتان رمزيتان توحيان بالحكمة ، وهذا واضح في كتاب الله عز وجل .

أما أميرة الأندلس فموضوعها يعكس ما لحق دول الإسلام من ذل بعد عز ، وتشتت بعد اجتماع ، وزوال بعد قوة وضعة ، والتاريخ الإسلامي هنا هو المعين الذي استقى منه شوقي موضوع المسرحية .

وإذا ما تحولنا إلى كتاب « أسواق الذهب » فإننا نلحظ أن الموضوعات الدينية هي الغلابة ، والتيار الإسلامي هو المسيطر .(٣٢)

ويشير شوقي في مقدمة الكتاب إلى أنه أنشأ فصوله على غرار « أطواق الذهب » للزمخشري ، و « أطباق الذهب » للأصفهاني .

أما « أطواق الذهب » فقد أودع فيه « جار الله الزمخشري » مائة مقالة بليغة ، أتبعها بمائة حكمة منسوبة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٣٣) .

وذكر شرف الدين الأصفهاني في مقدمة كتابه أنه أنشأ كتابه مترسماً خطى جار الله الزمخشري حيث حوى « أطباق الذهب » مائة ومقالتين ، كان ينهي كل مقالة بآية من القرآن الكريم تتصل بالفكرة التي تدور حولها المقالة . وكان ـ رحمه الله ـ كلما انتهى من مقالة طاف حول الكعبة حتى انتهى من تأليفه .(٣٤)

وهكذا تتضح العلاقة الوثيقة بين الكتب الثلاثة : فالموضوعات الدينية لها نصيب الأسد ، كما إن العبارة مشحونة بالسجع وألوان الزينة . وكما ختم الزمخشري موضوعات كتابه بمائة كلمة بليغة ، ختم شوقي أسواقه بمجموعة من الحكم التي صاغها .(٣٥)

ولم يقف تأثر شوقي بالقرآن والحديث عند اختيار الموضوع ، والتقاط الشخصيات

الرامزة ، بل نراه يتابع أسلوب القرآن الكريم والحديث الشريف استشهاداً واقتباساً وتضميناً .

وفي الوقت الذي تخلى فيه قطاع عريض من كتاب عصره عن السجع ، ترى شوقي متشبثاً به ، متحمساً له ، مدافعاً عنه بحرارة إذ يقول : ( السجع شعر العربية الثاني ، وقوافي مرنة ريِّضة خُصَّت بها الفصحى ، يستريح إليها الشاعر المطبوع ، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله ، ويسلو بها أحياناً عما فاته من القدرة على صياغة الشعر ، وكل موضوع للشعر الرصين محل للسجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع ، فإنما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرصين ، من حكمة تخترع ، أو مثل يضرب ؛ أو وصف يساق ، وربما وشِّيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ورصِّعت به القصار من فقر البيان المحض ؛ وقد ظلم العربية رجال قبحوا السجع وعدوه عيباً فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه : يوضع عنواناً لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشواً في رسائل السياسة ، أو ثرثرة في المقالات العلمية ؛ إن اللغة العربية لسربة مثرية ، ولن يضيرها عائب ينكر حلاوة الفواصل في الكتاب الكريم ، ولا سجع الحمام في الحديث الشريف ، ولا مأثور خالد من كلام السلف الصالح )(٣٦) .

وهكذا يعلن شوقي أنه اختار السجع لإعجابه بحلاوة الفواصل في القرآن الكريم والحديث الشريف . لا تقليداً لكتاب المقامات الذين ركزوا على الألفاظ دون المعاني وخاصة في المراحل الأخيرة من تاريخ المقامة .

يضاف إلى ما سبق أن السجع لاقى قبولاً من شوقي لأنه شاعر تميزه عذوبة الموسيقى ، ويروق لأذنيه حسن الإيقاع نحو قوله ( ... انظر إلى هذه الجبال كيف قطعت ، وإلى الأساس كيف وضعت ، وإلى العمد كيف رفعت ، وإلى الزخارف كيف جمعت ... )(٣٧) .

ألا يذكرنا بالأسلوب القرآني المعجز ، وحلاوة الفواصل فيه ؟ . كان القرآن الكريم هو النبع الصافي الثر الذي ينهل منه شوقي ، وهو يضع أسلوبه المعجز نصب عينيه على الدوام نحو ( ... وحبل من مسد تضعه في جيدها ... ) أو قوله ( ولا يزر النسر وزر الهدهد ) أو قوله ( خرجت في الأصيل إلى الفسطاط ، في الحالة التي قضاها الشيخ لي واختارها ، وأنا لا أعرف العجوز ولا دارها ، ولا أدري كيف أملك مزارها ، أجد من يحدثني أخبارها .. )(٣٨) .

أما أثر الحديث النبوي الشريف فيبدو واضحاً في كل ما كتب ، بيد أن شوقي لا يورد الحديث بنصه . وإنما يذكره بمعناه نحو ( ... إنما النيات موازيين الأعمال ) ، أو ( اطلبوا الدنيا تعملون لها كأنكم تعيشون أبداً ، أو الآخرة تعملون لها كأنكم تموتون غدا )(٣٩) .

وفي موضع آخر يقول ( ... إن مثل الإسلام فيما ينتابه من المصائب والآلام ، ويتوالى عليه من الخطوب الجسام ، كمثل الجسم في حالة المرض ينتفع الجزء المصاب بمقاومة سائر الأجزاء ويستمد العضو السقيم بما يكون من قوة في باقي الأعضاء )(٤١) .

ألا نشعر ونحن نقرأ ما كتب شوقي أنه كان يستحضر قول الرسول ﷺ ( مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ) ؟

وكما نشر شوقي الحكمة في شعره ، نراه ينثر حكمه في تراثه النثري ، وهي حكم يستقي معظمها من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال السلف الصالح ، ولا أدل على إعجاب شوقي بها من أفراد عشرين صفحة كاملة من كتاب « أسواق الذهب » ملأها بالحكم والأقوال المأثورة .

ومن مميزات حرفية التعبير عند شوقي ظاهرة التراكمية في عرض بعض صوره ، ووسيلته المفضلة في هذا التشبيه البسيط نحو قوله يصف مشهد الغروب ( ... وحيل بين الشمس والنهار ، وحكم فيها الواحد القهار ، فشهدنا مصرعها وهي تحتضر ، حثيثة المنحدر ، كأنها قطعة من سقر ، مست النار فاستعر ، أو جرن على مزرعته ، تلتهمه النار مسرعة ، أو جناح ملك ، سقط من الفلك ، فاحتواه البحر كالشرك ، أو منطاد يحرق ، لا يمسكه إلا زورق ، الزورق في الماء مغرق .... )(٤١) .

ولشدة ولع شوقي بالموسيقى نراه يحور في بعض الألفاظ لتناسب الفواصل ، نحو قوله : ( ذلك فضل السماء تؤتيه من تشاء )(٤٢) ، عوضاً عن أن يقول ( ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ) .

وعبارة شوقي تميل إلى القصر في الغالب ، كما إنها بعيدة عن الاغراب والتوعر اللذين كان يعمد إليهما بعض معاصري شوقي أمثال الشيخ محمد توفيق البكري في كتابه « صهاريج اللؤلؤ »(٤٣) وتكاد الفواصل تذوب وتتلاشى في العديد من المواضع بين

الشعر والنثر ، إذ لا تحتاج العبارات النثرية إلا إلى إعادة ترتيب فوق السطور دون حذف أو إضافة ، ومن هذا القبيل قوله ( ... جاره تدفع جاره ، نحو زار أو زيارة ، بدع في مصر شتى ، ما خلت منهن حارة ، صدق القائل مصر ، للسخافات قرارة )(٤٤) .

والعبارات السابقة تستوي شعراً موزوناً مقفى على النحو التالي :

جارة تدفع جاره    نحو زار أو زياره
بدع في مصر شتى    ما خلت منهن حاره
صدق القائل مصر    للسخافات قراره

وسواء جاءت أمثال تلك العبارات بوعي أو بصورة تلقائية ، فإن لها دلالاتها على تلك العلاقة الوطيدة بين شعره ونثره بشكل متداخل .

وإذا كان شوقي قد اختار السجع وسيلة مفضلة للتعبير عما تجيش به نفسه من أحاسيس ، وزعم أنه يجاري حلاوة الفواصل في القرآن الكريم والحديث الشريف ، فلابد أن نشير هنا إلى أن القرآن الكريم والحديث الشريف لم يرد منهما السجع بصورة متصلة .

وأغلب الظن أن شوقي لم يكن موفقاً في « تكثيف » السجع وألوان الزينة الأخرى ، ذلك أنهما كانا سلاحاً ذا حدين يدفعه تارة إلى الأمام فيبدع ، إذ يوفر للعبارة شحنة موسيقية عذبة ، كما يؤدي المعنى في وضوح وعمق ، وقد يقفان حائلاً دون استقصاء المعنى وبسطه ، لأن رنين الألفاظ يشغله عن استيفاء العناصر الأخرى .

وإذا كان هذا شأن شوقي في نظرته إلى الحياة السياسية ، فإن هذه الرؤية الثاقبة تكاد تنسحب على كل ميدان ، وهي رؤية تتجاوز السطح لتتغلغل إلى الأعماق : ليس الدين عنده مجرد شعائر تؤدي ، وإنما هو التزام قام بمبادئ الإسلام ، بحيث يتحقق الانسجام بين الأقوال والأفعال ، فالصلاة ( ... لو قصرت على وجوه تغسل ، وأرساغ تبلل ، وثياب تنظف وتجمل ، لكان الميت أطهر من الحي . فيا أصحاب الوضوء ، غسلتم الجوارح فهل غسلتم الجوانح ؟ ورحضتم الأطراف ، فهل رحضتم الأجواف ؟ طهرتم الراح من الأنجاس فهل طهرتموها من أشياء الناس ؟ ونظفتم من الطرق الأقدام ، فهل نظفتموها من سبل الحرام ؟ ومسالك الإجرام ؟ وتلك الوجوه الممسوحة بالماء هل ترقرق فيها الحياء ؟ )(٤٥) .

وما ينطبق على الصلاة ، التي هي عماد الدين ، ينطبق على بقية أركان الإسلام ، فالصوم ( حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع ، لكل فريضة حكمة ، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنة الرحمة ، يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ، يكسر الكبر ، ويعلم الصبر ، ويسن خلال البر ، حتى إذا جاع من أَلِفَ الشبع ، وحرم الترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والجوع كيف آلمه إذا لذع ) .(٤٦)

ويستمر شوقي في شرح فلسفة العبادات ، ويؤنب قطاعاً عريضاً من المسلمين الموسرين ممن عطلوا الزكاة ( ... أمر الله فصليتم ، ونهى المال فما زكيتم ، فرقتم بين الخمس ، وكلها حكم الواحد ، فلكل ألف مصل مُزكٍ واحد ، استسهلتم فأخذتم ، واستصعبتم فنبذتم ، فلو دخل المال في الصلاة ، لا قفرت منكم مساجد الله ! ولو عزم أحدكم على الشهادة ، لكان به عن نطقها زهادة ! أعلمتم أن الزكاة فروض ، وأنها وقاء الأعراض والعروض ، وأنها ليست بالعبث المفروض ؟ هي مال الفقير خلستموه ، ورزق المحروم حبستموه ، وحق العاجز في الحياة بخستموه ، وحكم الله الذي أغناكم قد دستموه ، تقرضون الولاة ، ولا تقرضون الله ، وتنفقون تملقاً لأهل الجاه ، ولا تنفقون تعلقاً بالنجاة )(٤٧) .

ومن نفس هذا الموقع الذي يتخذ من قيم الإسلام ميزاناً للسلوك ، يشن شوقي حملة شعواء على ما علق بمبادىء الشريعة السمحة من خرافات وأوهام دسها أعداء الدين ، وصدقها العامة ولم ينبذها الخاصة ومن هذا القبيل الإيمان بنفع الأولياء والمشعوذين ، والسعي إلى الأضرحة والتمسح بالجدران ولثم الأعتاب ( ... ترى الرجل يتمسح بالباب ، ويقبل الأعتاب ، ويستلم الشباك ، ويسكب دمع النساك ، ويخشع للولي لا لله العلي ، ويصلي لحاجة في النفس ، ويترك الصلوات الخمس ، ولو كانت العامة هي المخصوصة بهذا البلاء ، لخف محمل هذه الداهية الدهياء ، ولقلنا نحن والناس في هذا سواء ، لكنها أمور ، ينزل إليها من شاهقة القصور ، ويشتغل بها في رفيعات الدور ، وتقتل بسمها الفريق المتوسط من الجمهور . حتى لترى الرجل الذي يقرأ « المؤيد » و « المقطم » لا يستحي أن يبعث بطفله المعتل ، إلى أقذر محل ، ليقرأ الشيخ على رأسه ، فيطرد الشيطان بيأسه ، أو يلمس عموداً تتناوب عليه الشفاه ، وتزدحم عليه بلعابها الأفواه )(٤٨) .

لقد سيطرت هذه النزعة المثالية على نثر شوقي بأسره ، فوقف مدافعاً عن الفضيلة

داعياً إليها ، مهاجماً للرذيلة بلا هوادة ، فهو يدعو إلى التآخي والتراحم ، والصبر على المكاره ، وأداء الشعائر الإسلامية كما يجب أن تؤدي ، ويندد بالظلم وشاهد الزور والملاحدة والشيخ المنهدم المزواج وغيرها من الآفات ، وهي مبادىء تنضوي تحت لواء « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »(٤٩) .

كان الصراع مع أوروبا ــ أواخر القرن الماضي ــ صراعاً دموياً حضارياً ، وقد خلبت أضواء تلك الحضارة الوافدة عيون فريق من المثقفين ، فعشيت ، وافتقدت الرؤية ، وراح هؤلاء يبشرون بمبادئها ، ويهللون لقوانينها التي رفعت شعارات الحرية والإخاء والمساواة ، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن الإسلام رفع هذه الشعارات وطبقها منذ قرون على أكمل وجه .

لم ينخدع شوقي بتلك الأضواء ، ولم يندفع اندفاع من ذكرناهم ، بل ظل ثابتاً على موقفه الذي تميز بالاعتدال والبعد عن التطرف .

كان « قاسم أمين » من هؤلاء المتحمسين للحضارة الأوروبية ، فنادى بتحرير المرأة ، ووجدت دعوته صدى واسعاً ، كما فجرت خلافات عميقة بين مختلف الاتجاهات ؛ وهنا تصدى شوقي لهذه الدعوة من منطلق إسلامي ، حيث حذر من مغبة الاندفاع وراء هذه الدعوة الجديدة ( ... فهب أن الحجاب قد ارتفع ، وأن الاختلاط قد وقع ، وأن ضعف الرجال منا أضاع النساء ، وصارت الغلبة في أمرها لمن هو الغالب في سائر الأشياء ، فأصبحنا هذا يبكي أخته ، وهذا يندب زوجته ، وهذا يسائل الناس هل رأوا ابنته ؟ ، وتوالت المصائب ، وانهالت النوائب ، وأصبح قليل ما يقع في أوروبا من الفساد بالعقل ، كثيراً في مصر بالغفلة والخور والجهل ، فأي باب يومئذ تطرق ، وبأي ذيل تتعلق ؟

فويل ثم ويل ثم ويل لقاضي الأرض من قاضي السماء(٥٠)

وإذا طرح موضوع المرأة والحجاب ، فإن شوقي يرى في لباس المرأة التركية الزي الأمثل للمرأة المسلمة ، لا بدافع من التعصب للجنس ، وإنما لأنها تمثل المرأة المسلمة الملتزمة بتعاليم الشريعة الإسلامية ، وقد عرض لنا صورة لهذه المرأة إثر زيارة قام بها لأحد مساجد « الآستانة » إذ يقول : ( ... ثم كان مني التفات إلى النسوة المصليات ، والأخريات التاليات ، فرأيت لهن في الأسفار جمال الأقمار ، في جلال الأبرار ، أو هن الحور العين في هذه الدار ، قد أخذن بما أمرت به الشريعة الطاهرة ، فلم تبد منهن

إلا وجوه ناضرة إلى ربها ناظرة ، ليس بحسنها تطرية ، ولا بلونها تطلية ، فلما فرغن من صلاتهن ، وانتهين من تلاوتهن ، خففن للذهاب ، وابتدرن الأبواب ، فرأيت الرجال يتنحون حتى تعبر النساء . وقد ملئوا وقاراً )(٥١) .

ولا تكتمل الصورة المشرقة التي ينشدها شوقي للمرأة المسلمة إلا بالصقل والتهذيب عن طريق التعليم ( ... ابدءوا بالنساء فعلموهن في الصغر ، يعلمنكم في الكبر ، وربوهنّ في الطفولة ، يربينكم في الكهولة ، ولا تنشئوا مدرسة واحدة للرجال ، إلا وقد أنشأتم مدرستين للنساء )(٥٢) .

وكما دعا شوقي إلى تحرير البلاد الإسلامية من المحتلين ، وتخليص الدين من الخرافات والأوهام ، وتعليم المرأة المسلمة ، نراه يرفع الصوت عالياً لتحرير الاقتصاد من الاستيراد ، والاعتماد على النفس في الصناعة ( ... إنكم لا تزالون عراة حتى تلبسوا ما حكتم وخطتم ، ولا تزالون حفاة حتى تنعل أيديكم أرجلكم ، ولا تزالون مشاة حتى تركبوا مما صنعتم ، ولا تزالون تتوسدون الثرى حتى تسكنوا ما بنيتم ) .(٥٣)

ولم يغفل شوقي الجانب الثقافي ، فدعا إلى تحرير العربية من العجمة ، وأهاب بالأزهر الشريف أن يقوم بدوره في النهوض بلغة القرآن الكريم ونشر لوائه في أصقاع الأرض ، كما نعى على الصحافة اشتغالها بسفاسف الأمور وإغفالها للدور الطليعي الذي يجب أن تقوم به(٥٤) .

لن يعود للأمة الإسلامية مجدها الزاهر ، وماضيها الحافل بالسؤدد إلا ببعث حضارة جديدة تتخذ من العلم جسماً ومن الإسلام روحاً ( ... عليكم بالعلم ، خذوه نافعاً دافعاً ، واهجروا منه ما يميت إلى ما يحيي ، واطلبوا الدنيا تعملون لها كأنكم تعيشون أبداً ، أو الآخرة تعملون لها كأنكم تموتون غداً )(٥٥) .

أليس هذا توجيه الرسول الأعظم صلوات الله عليه حيث يقول : ( اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ؟ .

إنه لا يخفى على كل ذي بصيرة ما تحمله هذه المضامين المكثفة التي سقنا بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر ، من دلالات عميقة على ملامح التيار الإسلامي الذي يجري متدفقاً قوياً ، يستمد أصوله من كتاب الله وسنة رسوله ، ويرى القدوة في شخص الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين والسلف الصالح رضوان الله عليهم .

## ● نثر شوقي والنقـاد ●

انقسم الدارسون والنقاد الذين تناولوا تراث شوقي النثري بين متعصب له أو متعصب عليه ، واتخذ فريق ثالث موقفاً معتدلاً من خلال حصر إيجابياته وسلبياته .

وقد تعرض شوقي في شعره ونثره لحملات عدة ، كان أعنفها تلك الحملة التي قادها عباس العقاد في كتاب « الديوان » عام ١٩٢١ ، وكنا أشرنا إلى الهجمة التي شنها قبل العقاد بسنوات صاحب « مصباح الشرق » أواخر القرن الماضي .

وشارك في تلك الحملة بعض المرتزقة من الصحفيين عندما أدركوا نقطة الضعف لدى شوقي ، حيث كان يجزع أشد الجزع كلما قرأ مقالاً يتناول أحد أعماله الأدبية بالتسفيه والقدح .

ويذكر سكرتيره أحمد عبد الوهاب أبو العز أنه كان يلجأ أحياناً إلى استرضاء بعض هؤلاء المرتزقة ببعض المال ، أو بدعوة إلى وليمة يقيمها أمير الشعراء في منزله(٥٦) .

ومن الملاحظ أن نقد العقاد لشوقي اتسم بالتطرف والقسوة والتعسف في إصدار الأحكام ، حيث جرد شوقي من كل حس فني ، وحرمه من ميزة الإبداع إذ يقول ( ... إن الروايات التي نظمها شوقي قد خلت من الشخصيات والتبست فيها ملامح الأبطال إيما التباس .. وما كان لخفاء الشخصيات في رواياته ومدائحه ومراثيه من علة غير خفاء الشخصية في نفسه ، فهو لا يمتاز بحس حتى يدرك مزايا الحس وفوارقه في غيره ! )(٥٧) .

وربما كان خير دليل على تحامل العقاد وتطرفه ، ذلك الكتيب الذي صدر تحت عنوان « قمبيز في الميزان » وقد قصد العقاد إلى هدم شوقي حيث ساق في نهاية الكتيب أبياتاً من الشعر يعارض فيها شعر المسرحية وصلت حد التهكم والشتم مما ينأى بالعقاد عن الموضوعية وينسبه إلى التعسف .

أما شكيب أرسلان فكان له رأي مناقض لرأي العقاد ، إذ أكد أن شوقي ( ... لم يكن شاعراً فذاً فحسب ، بل كان ناثراً بليغاً مترسلاً ضليعاً ، متين العبارة سلسها ، يقل في الكتاب والمترسلين من يصوغ صياغته ، إلا أن شعره قتل نثره : فبينما هو في الشعر الفذ الذي يجري ولا يجرى معه ، إذ هو في النثر يجري معه الناس مثنى وثلاث ورباع . ولا شك أن كفة نظمه رجحت بكفة نثره رجحاناً بيناً حمل الناس على الظن

بضعف متنه في صنعة الكتابة ، وليس الأمر كذلك ، بل كان له نثر رائق ، وترسل مونق ، وفصول شائقة كانت تخلد لو لم تفتك بها قصائده )(٥٨) .

واكتفى الدكتور شوقي ضيف بإشارة سريعة موجزة إلى نثر شوقي حيث قال : ( لقد أدى شوقي بشعره ما لم يؤده بنثره ، وكان له فيه القدح المعلى بين أبناء عصره )(٥٩) .

وإذا كنا نحمل آراء العقاد على التطرف ، وآراء شكيب أرسلان على المجاملة لأنه صديق شوقي الحميم ، فإننا نرى أن الدكتور شوقي ضيف قد غمط شوقي الناثر حقه ، إذ خص كل تراثه النثري بصفحتين تضمنت إحداهما « ص ٢٨٤ » قطعة مختارة من كتاب « أسواق الذهب » ؛ كما يلاحظ أن ما كتبه د . شوقي ضيف عن نثر شوقي جاء بعد الخاتمة ، وكأنه تذكر ذلك النثر فأشار إليه من بعيد .

**وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى الإهمال الذي لحق بهذا التراث .**

**ومهما يكن من أمر الخلافات التي دارت حول شعر شوقي ونثره ، فقد كان أمير الشعراء في تراثه النثري مسلماً حقاً ، يحضن قضايا المسلمين ، ويدفع عن الإسلام ما يمس تعاليمه من شبه واتهامات ، .ويؤيد الإصلاح على أساس ديني ، ويطرب إذا نال المسلمون الخير ، ويحزن إذا أصابهم الشر ، ويحثهم على النهوض ، ويذكرهم بماضيهم المجيد ، ويريد لهم الحياة الحرة الكريمة ، والوحدة في ظل الإسلام .(٦٠)**

**ولسوف يظل شوقي علامة بارزة على الطريق ، ونجماً متألقاً على مدار الزمن في سماء الأدب العربي ، وعلماً أعطى الكثير من أجل العرب والمسلمين .**

● ● ●

## • الهوامش •

(١) د . شوقي ضيف ـ شوقي ومكانته في الشعر العربي الحديث ـ مجلة المجلة ـ القاهرة ـ ديسمبر سنة ١٩٦٨م ـ ص ٢٢ .

(٢) انظر ، أحمد شوقي ـ مقدمة الشوقيات ـ ط دار الكتب المصرية ـ سنة ١٩٠٠م .

(٣) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ط المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة سنة ١٩٥٣م ـ ص ١٤ .

(٤) انظر ـ د . طه وادي ـ أحمد شوقي والأدب العربي الحديث ـ ط روزاليوسف ـ القاهرة سنة ١٩٧٣م ـ ص ١٨١ .

(٥) أحمد عبد الوهاب أبو العز ـ اثنى عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ـ ط مكتبة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٣٢م ـ ص ٨٩ .

(٦) د. طه وادي ـ أحمد شوقي والأدب العربي الحديث . ص ١١٥ .

(٧) عبد الستار الحلوجي ـ أحمد شوقي ـ نشرة بيلوغرافية ـ مجلة المجلة ـ القاهرة ـ ديسمبر سنة ١٩٦٨م ـ ص ١١٠ .

(٨) انظر ـ د. عبد المحسن بدر ـ تطور الرواية العربية الحديثة في مصر . دار المعارف ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦٣م ص ١١٦ .

وانظر : محمد رشدي حسن : أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤م ـ ص ١٤١ .

(٩) أحمد شوقي ـ ول وتيمان ـ مطبعة الآداب والمؤيد ـ القاهرة ـ ط ١٨٩٩ ـ ص ١٥٨ .

(١٠) محمد المويلحي ـ صحيفة مصباح الشرق ـ القاهرة ـ عدد ٢٠ أبريل سنة ١٩٠٠م .

(١١) لمزيد من التفصيل انظر : د. محمد مندور ـ مسرحيات شوقي ـ دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٥٤م .

(١٢) انظر د. محمد صبري ـ الشوقيات المجهولة ـ ط ٢ ـ طار المسيرة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ص ١٥٤ .

(١٣) « سائح » : صحيفة المؤيد ـ القاهرة ـ ٩ نوفمبر سنة ١٨٩٩م .

(١٤) علي أدهم ـ المحمد بن عباد ـ مكتبة مصر ـ القاهرة ـ ط ١٩٦٢م ـ ص ٢٩٢ .

(١٥) د. محمد مندور ـ مسرحيات شوقي ـ ط ٣ ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٦٥م .

(١٦) د. شوقي ضيف ـ شوقي شاعر العصر الحديث ص ٢٥٤ .

(١٧) لمزيد من التفصيل انظر : عبد الرحمن الرافعي ـ الزعيم أحمد عرابي ـ دار الهلال ـ ك. هـ . سنة ١٩٥٣م ـ ص ١٩٢ .

(١٨) انظر : د. ماهر حسن فهمي ـ شوقي ـ شعره الإسلامي ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥٩م ـ ص ٥٧ .

(١٩) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ١٧٣ .

(٢٠) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ـ المطبعة التجارية ـ القاهرة سنة ١٩٣٢ ـ ص ٦ .

(٢١) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ـ ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .

(٢٢) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .

(٢٣) المصدر السابق ـ المؤيد ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .

(٢٤) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ٢٨، ٢٩ .

(٢٥) المصدر السابق ـ ص ١٦٨ .

(٢٦) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .

(٢٧) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٢٨) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ١٩٢ .

(٢٩) انظر ـ د. سهير القلماوي ـ متى ندرس فن شوقي؟ ـ مجلة المجلة ـ القاهرة ـ ديسمبر سنة ١٩٦٨م ـ ص ٣ .

(٣٠) انظر ، د. شوقي ضيف ـ شوقي شاعر العصر الحديث . ص ٩٣ .

(٣١) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام . المؤيد ١٨٩٩/٨/٣١م .

(٣٢) سائح ـ المصدر السابق . المؤيد ١٨٩٩/٨/٢٧م .

(٣٣) محمود بن عمر الزمخشري ـ أطواق الذهب في المواعظ والخطب . ط مطبعة السعادة / القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ.

(٣٤) شرف الدين الأصفهاني ـ أطباق الذهب ـ ط المطبعة الإنسية ـ بيروت سنة ١٣٠٢ هـ .

(٣٥) انظر أسواق الذهب ، ص ١١٩ وما بعدها .
(٣٦) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ، ص ١١٥ .
(٣٧) د. محمد صبري السربوني ـ الشوقيات المجهولة ـ جـ ١ ـ ص ٣١٩ .
(٣٨) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ، ص ٢٠٧ وانظر الصفحات : ٢٣ ـ ٢٧ ـ ٣٥ ـ ٧١ ـ ١٧٣ .
(٣٩) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ٧١ ، ص ٢٠١ .
(٤٠) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ـ ١٠ سبتمبر سنة ١٨٩٩م .
(٤١) سائح ـ المصدر السابق ، المؤيد ٢٧ أغسطس سنة ١٨٩٩م .
وانظر تراكم التشبيهات في شيطان بنتاءور ـ الصفحات : ٧٥ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ ٢٠٨ ـ ٢٢٠ .
وانظر د. سهير القلماوي ـ متى ندرس فن شوقي ـ مجلة المجلة ـ ص ٥ .
(٤٢) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ، ص ٢٧٥ .
(٤٣) انظر ـ محمد توفيق البكري ـ صهاريج اللؤلؤ ـ ط ـ محمود حجاج المكتبي ـ القاهرة سنة ١٩١٢م ـ ص ٥٤ .
(٤٤) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ١٨٩٩/١٠/٢٢م .
(٤٥) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ، ص ٨٦ .
(٤٦) أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ، ص ٨٩ .
(٤٧) أحمد شوقي ـ المصدر السابق ، ص ٩٠ .
(٤٨) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ـ المؤيد ١٨٩٩/١٠/٢٢م .
(٤٩) انظر : أحمد شوقي ـ أسواق الذهب ـ الصفحات ـ ٥٧ ـ ٦١ ـ ٧١ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ ٨٣ .
(٥٠) سائح ـ بضعة أيام في عاصمة الإسلام ، المؤيد ـ ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٩م .
(٥١) سائح ـ المصدر السابق ـ المؤيد ـ ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٩م .
(٥٢) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ٢٠٣ .
(٥٣) أحمد شوقي ـ المصدر السابق ـ ص ٢٥٦ .
(٥٤) أحمد شوقي ـ المصدر السابق نفسه ـ ص ٢٣٣ .
(٥٥) أحمد شوقي ـ شيطان بنتاءور ـ ص ٢٠١ .
(٥٦) انظر : أحمد عبد الوهاب أبو العز ـ اثني عشر عاماً في صحبة أمير الشعراء ـ ص ٨٦ .
وانظر : إبراهيم عبد القادر المازني ـ بعض الذكريات عن شوقي ـ مجلة الهلال ـ أكتوبر سنة ١٩٤٧م ـ ص ١١ .

وانظر : عبد الرحمن صدقي ـ من أين تبدأ الثورة على أمير الشعراء ـ مجلة الهلال نوفمبر سنة ١٩٦٨م ص ٢٣ .
(٥٧) عباس العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ـ كتاب الهلال ـ القاهرة سنة ١٩٧٣م ـ ص ١٢٨ .

وانظر : عباس العقاد وإبراهيم المازني ـ الديوان ـ ط ٣ ـ دار الشعب ـ القاهرة ـ ( د ـ ت ) ص ٥ وما بعدها .
(٥٨) شكيب أرسلان ـ شوقي أو صداقة أربعين عاماً ـ ط مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة سنة ١٩٣٦م .
(٥٩) د. شوقي ضيف ـ شوقي شاعر العصر الحديث ـ ص ١٨٥ .
(٦٠) انظر : د. ماهر حسن فهمي ـ شوقي ـ شعره الإسلامي ـ ص ٢٠٩ .